Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 40:2 (2005)

الإبحار في أعماق التاريخ والرواية الإسلامية: "ذو القرنين وسور الصين"

عبد الفتاح رواس قلعه جي

DMHL

لا يمكن للسائح أن يقول إنه قد زار بكين إلا إذا صعد السور العظيم، وتناول البط البكيني المشوي، وشاهد أوبرا بكين. هذا ما يقوله لك مضيفك الصيني وأنت تستقبل بعد رحلة طويلة شاقة أرض الأحلام. وقد تبيّن لنا فيما بعد أن ثمة أشياء كثيرة إذا لم تشاهدها فأنت لم تزر الصين.

لا يمكن لك أن تغادر بكين قبل أن تزور السور العظيم رمز الصين وعنوان حضارتها وإرادة شعبها في الحياة وهو الأثر الوحيد في الأرض الذي يراه رجال الفضاء من فوق سطح القمر!

في استراحة السور شاهدنا عرضاً سينمائيا في قاعة كبيرة وعلى شاشة جدارية دائرية ضخمة لمراحل العمل في السور والإمبراطور الأول الذي أمر ببنائه. ثم انتقلنا بالتلفريك إلى أحد الأبراج، وبدأت الزيارة الأسطورية. يذكر ول ديورانت في قصة الحضارة أن أبواب السور الضخمة مبنية على الطراز الآشوري! كما يذكر أن الإمبراطور "شي هونغ دي ٢٢١–٢٣٠ ق. م" الملقب ببسمارك الصين لأنه وحّد البلاد هو الذي أتم الأسوار التي كانت مقامة قبله وذلك لتعطيل هجوم قبائل المغول والهون على جنوبي الصين، وقد اضطر الهون أمام هذا السور إلى الاتجاه غرباً نحو أوروبا واجتياح إيطاليا حتى سقطت روما في أيديهم.

يبدأ السور من ممر "جيايو قوان" بمقاطعة "قان سو" غربا وينتهي عند ممرّ "شان هاي قوان" بمقاطعة "خه بي" شرقا مرورا بجبال شاهقة كأنه تنّين عملاق يستلقي على أراضي الصين الشمالية الواسعة. وهو أقدم وأكبر مشروع دفاعي في الصين والعالم. وقد أدرج في قائمة التراث الثقافي العالمي التي حددتها منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة عام ١٩٨٧م. بدأت الممالك المختلفة في موسمي الربيع والخريف (من عام ٧٧٠ ق. م إلى عام ٤٧٦ ق. م) وعهد الممالك المتحاربة (من عام ٤٧٥ ق. م

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

إلى عام ٢٢١ ق. م) بناء أسوار على حدودها من أجل الدفاع عن نفسها، وأصبحت تلك الأسوار أقدم جزء من سور الصين العظيم. وفي عام ٢٢١ ق. م وحّد الإمبراطور "شي هوانغ دي الممالك المتحاربة، وأسس أول دولة موحدة ذات سلطة مركزية في تاريخ الصين وهي أسرة تشين الملكية. ومن أجل تثبيت حدودها وصدِّ عدوان أقلية قومية "شيونغ نو" التي كانت تعيش في مناطق شمال أسرة "تشين" الملكية، ربط "شي هوانغ دي" الأسوار التي كانت بنتها الممالك المتحاربة مما شكل سور أسرة "تشين" الملكية الذي بلغ طوله أكثر من ٥٠٠٠ كيلومتر ويبدأ من شرقي مقاطعة "لياو نينغ" شرقي الصين وينتهي عند "لين تاو" بمقاطعة "قان سو" غربي الصين. وبعد ذلك، واصلت الأسر الملكية المتعاقبة في الصين بناء أسوار على هذا الأساس.

يمتد سور الصين العظيم الحالي من قلعة "جيايويقوان" بمقاطعة "قان سو" غربا إلى قلعة "شانهايقوان" بمقاطعة "خه بي" شرقاً قاطعاً ٦٣٥٠ كيلومتر. ويؤكد الصينيون أنه إذا وصلت جميع الأسوار التي تهدّمت في مدة ألفي سنة من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن السادس عشر الميلادي لتجاوز طول الأسوار الإجمالي خمسين ألف كيلو متراً، أي أطول من محيط الكرة الأرضية.

إن سور الصين العظيم ليس سورا فقط، بل هو مشروع دفاعي متكامل يتكون من الحيطان الدفاعية وأبراج المراقبة والممرات الاستيراتيجية وثكنات الجنود وأبراج الإنذار وغيرها من المنشآت الدفاعية. ويسيطر على هذا المشروع الدفاعي نظام قيادي عسكري متكامل يتكون من مستويات مختلفة. ولنأخذ سور الصين في أسرة "مينغ" الملكية كمثال، كان هذا السور الذي يبدأ من نهر "يالوه" شرقا وينتهي عند ممر "جيايوقوان" غربا ويبلغ إجمالي طوله ٧٠٠٠ كيلومتر ينقسم إلى تسع مناطق إدارية عسكرية، ولكل منطقة رئيس تنفيذي لإدراتها بصورة منفصلة ومسؤول عن إصلاح السور داخل المنطقة وترميمه وهو مسؤول أيضاً عن الشؤون الدفاعية في المنطقة أو مساعدة المناطق العسكرية المجاورة على شؤونها الدفاعية وفقا لأمر وزارة الدفاع الوطنية. ويذكر أن عدد الجنود المرابطين على خط السور في عهد أسرة "مينغ" الملكية بلغ حوالي مليون جندي.

وتعتبر الحيطان الممتدة جزءا رئيسيا من مشروع سور الصين الدفاعي. وبنيت الأسوار فوق الجبال الشاهقة أو مواقع خطرة بالسهول حسب التضاريس الجغرافية والحاجات الدفاعية وغالبا ما تكون الأسوار التي بنيت في السهول أو الأماكن الهامة عالية ومتينة للغاية، أما الأسوار المبنية على المواقع الخطيرة فوق الجبال، فهي منخفضة وضيقة نسبيا، وذلك من أجل توفير القوى العاملة ونفقات البناء. ويبلغ متوسط ارتفاع السور في ممر "جيو يونغ قوان" و "بادا لينغ" أو داخل مقاطعات "خه ب ي" و "شن سي" و "قان سو" نحو ٧ أو ٨ أمتار وسمك قاعدته ٦ أو ٧ أمتار، وسمك قمته ٤

أو ٥ أمتار. وبني في الجهة الداخلية على قمة السور حائط إضافي ارتفاعه أكثر من متر، وذلك من أجل الحيلولة دون سقوط الجنود من على السور، وبُنِيَ على الجهة الخارجية حائط إضافي ارتفاعه متران تقريبا، وعلى هذا الحائط فتحات علوية للمراقبة وفتحات تحتية لإطلاق النار أو إسقاط الأحجار. وفي المناطق المهمة جدا، بنيت على السور حيطان متعددة لمنع صعود الأعداء السور. وفي منتصف عهد أسرة "مينغ" الملكية، أضيفت إلى السور أبراج المراقبة أو مباني المراقبة لمتابعة تحركات الأعداء وإسكان الجنود الذين يقومون بدوريات الحراسة أو تخزين الأسلحة والأغذية. وبذلك تعززت القوة الدفاعية لسور الصين إلى حد كبير.

وتعتبر أبراج الإنذار جزءا هاما أيضاً من مكونات الدفاع لسور الصين العظيم. إنها مرافق لإرسال ونقل معلومات عسكرية. وفي الحقيقة إن أبراج الإنذار بصفتها أداة لنقل المعلومات كانت موجودة منذ القدم، وتم الاستفادة منها منذ بداية بناء سور الصين بصورة جيّدة بل كان يتم إكمالها تدريجيا لتصبح أفضل أسلوب لإرسال ونقل المعلومات العسكرية في العهود القديمة. وكان أسلوب نقل المعلومات هو إطلاق الدخان نهارا وإشعال النار ليلاً، إنه أسلوب علمي وسريع لنقل المعلومات إذ يمكن معرفة عدد الأعداء من عدد المواقع التي انطلق منها الدخان أو أشعلت فيها النار. وفي عهد أسرة مينغ الملكية أضيفت أصوات المفرقعات في وقت إطلاق الدخان وإشعال النار لتعزيز فعالية الإنذار، الأمر الذي يمكن من إبلاغ المعلومات العسكرية بدقة إلى أماكن بعيدة ومختلفة في لحظة واحدة. وفي ظل عدم وجود الهواتف والاتصالات اللاسلكية في العهود القديمة، فإن هذا الأسلوب لنقل المعلومات العسكرية كان سريعا جدا.

ويعتبر تنسيق مواقع أبراج الإنذار أمرا مهما جدا. وتقع كلها في أماكن خطيرة على قمم الجبال، ولا بد أن تتناظر ثلاثة مواقع مع بعضها البعض لتسهيل نقل المعلومات.

يمر سور الصين العظيم بتضاريس جغرافية مختلفة ومعقدة، حيث يعبر الجبال والأجرف ويخترق الصحراء ويجتاز المروج ويقطع الأنهار. لذلك فإن الهياكل المعمارية للسور مختلفة وغريبة أيضاً إذ بني السور في المناطق الصحراوية بمواد مكونة من الأحجار المحلية ونوع خلمد من الصفصاف نظراً لشح الصخور والطوب. أما في مناطق هضبة التراب الأصفر شمال غربي الصين، فبني السور بالتراب المدكوك أو الطوب غير المحروق، لكنه متين وقوي لا يقل عن متانة السور المبني بالصخور والآجر. وبني السور في عهد أسرة "مينغ" الملكية غالبا من الطوب أو الصخور أو بخليط منهما. وتوجد قناة على قمة السور لأجل صرف مياه الأمطار تلقائيا وحماية السور.

وبالإضافة إلى دوره العسكري، أثر سور الصين العظيم على التنمية الاقتصادية الصينية أيضاً. إن اتجاه سور الصين متطابق تقريبا مع الخط الفاصل بين المناخ شبه الرطب والمناخ الجاف في الصين، وأصبح في الواقع فاصلا بين المناطق الزراعية والمناطق البدوية. وفي قديم الزمان، كانت تقيم في شمال الصين أقليات قومية بدوية، ويعيش أهالي قومية "هان" وسط الصين، ومن أجل حماية الإنتاج الزراعي ومنع نهب القوميات البدوية لمنتجاتهم الزراعية، ظل أهالي قومية "هان" يبنون السور باستمرار. وبذلك أصبح سور الصين العظيم حاجزا للتطور المستقل للحضارتين المختلفتين.

ومن بين المواقع السياحية على سور الصين العظيم في أنحاء الصين، يعتبر سور "با دا لينغ" شمال بكين أفضل قطعة محفوظة من سور الصين، كما هو أحد أفضل المواقع لتسلق السور بالنسبة للزوار والسائحين.

وبعد .. هذا ما يرويه لنا الصينيون عن منجزهم المعماري العظيم، فماذا يروي لنا التاريخ الأبعد، الموغل في القدم، عن سور الصين وبانيه الأول "ذي القرنين الفاتح اليمني الحميري المؤمن الملك الصعب بن ذي المراثد بن الحارث" حسب ما ورد في الرواية الإسلامية القرآنية وفي الأشعار العربية المتواترة؟

أخبار ذي القرنين في الشعر العربي:

في التاريخ قضايا كانت مثار الجدل والبحث لدى المؤرخين القدماء، ثم تركها البحث المعاصر جانباً في انتظار ظهور وثائق تاريخية وآثارية تؤكدها، وفي كل يوم تتكشف في العلوم وفي الحفريات خاصة حقائق جديدة. إن كثيراً مما كان يعد من الأساطير ثبتت حقيقته التاريخية من خلال المعلومات المستقاة من الرُّقُم الأثرية كقصة الطوفان التي أشارت إليها ملحمة جلجامش. وإذا كانت هذه الملحمة وغيرها من الملاحم ديوان الماضي البعيد ورموز الحضارة والتاريخ القديم لهذه المنطقة فقد كان الشعرُ ديوان العرب وفيه رموز تاريخهم وأبطالهم وأيامهم وحضارتهم، وفي الشعر العربي القديم إشارات إلى ملك عربي حميري قام بفتوحات واسعة حتى بسط سلطانه على العالم، هو الملك الصَّعب ذو القرنين، يقول النعمان بن الأسود الحميري:

إذا جـــاوَزْتَ مـــن شَـــرْفاتِ جَـــوٍّ ... وسِـــرْتَ بـــأَيْك بَرْقَـــه رَحرحـــانِ
وجـــاوَزْتَ العقيـــقَ بـــأرضِ هنـــد ... إلى الـــصوباتِ والنخـــل الـــدواني
هنـــاك الـــصعبُ ذو القـــرنين ثـــاوٍ ... بـــبطنِ تنوفـــةِ الحِنـــوين عـــاني

وممن ذكره في شعره الربيعُ بنُ ضُبَيْع، قال يخاطب بني عبس:

ألم تعلموا ما حاول الصعبُ مُدَّةً فهل ... وما صَبَّحِ الساعي وآل رَزَاحِ
فهل بَعْدَ ذي القرنين مُلْكٌ مخلَّد ... وهل بَعد ذي الملكين يومُ فلاحِ

وذكره تُبَّع الحميري في شعره قائلاً:

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِماً ... مَلِكاً تَدين لهُ الملوكُ وتُحْشَدُ
من بَعْده بلقيسُ كانت عمتي ... ملكتهمُ حتى أتاها الهُدْهُدُ

وفي كتاب التيجان في الكلام على ذي القرنين شعر كثير، كما يذكر أن رجلاً سمع قس بن ساعدة الإيادي يقول: "أين الصعبُ ذو القرنين، جَمَعَ الثقلين، وأداخَ الخافِقَين وعمَّر ألفين، ولم تكنِ الدنيا عندَهُ إلا كلحظة عين".

كما وقع ذكر ذي القرنين في شعر امرىء القيس وأوس بن حجر وطرفة بن العبد وغيرهم.

فمن هو ذلك الملك العربي المسمى بذي القرنين؟

هذا السؤال تصدّى للإجابة عليه مؤرخو العرب القدماء، غير أن التحقيق في أمره وذكر أخباره لم يُفرد في كتاب إلا على يد المؤرخ الحلبي العلامة محمد راغب الطباخ وعنوان كتابه **ذو القرنين وسدّ الصين** ويقع الكتاب في اثنتين ومائة صفحة طبع عام ١٩٤٠م في الطبعة العلمية العصرية بحلب عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م. والطباخ صاحب مجموعة من المؤلفات أهمها **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء** في سبع مجلدات، و **الروضيات** وهو جمع وتوثيق لشعر الصنوبري شاعر سيف الدولة. و **الأنوار الجليّة في مختصر الأثبات الحلبية**، وشعر الأديب عمر بن حبيب الحلبي من أعيان القرن الثامن عشر، وترجمة المؤرخ كمال الدين بن العديم. وله كتب مطبوعة أخرى ومخطوطة.

منهج الطباخ في التوثيق والتأليف:

في كتابه ذو القرنين وسدّ الصين ينطلق الطباخ في منهجه التاريخي من مرتكزات إسلامية وعربية، فهو لا يريد أن يخلع عبارة المؤرخ الإسلامي العربي بالرغم من أنه يحاول الاستفادة من المؤرخين الغربيين بما يدعم وجهة نظره، وسيشير البحث إلى أننا في ظل نظرية ثقافية عامة تخصنا سنجد أن الطباخ لم يكن مخطئاً في هذا الاتجاه، وأنّ جُهده في البحث عن الحقيقة في هذا المجال لا يمكن أن يُصَنَّفَ إلا من قبيل البحث العلمي وإن لم تؤكده الأحافير فاليمن مازالت بكراً في

التنقيبات الأثرية. ذاكرين بالمناسبة أن توراة اليهود ظلت لآماد طويلة بنك المعلومات في التاريخ القديم لهذه المنطقة.

المصادر التي اعتمدها الطباخ في بحثه هي:

١- المصادر العربية وفيها ذكر لذي القرنين وسدّ الصين وبعض التفصيلات عن رحلة هذا الفاتح العربي، وتشمل: القرآن الكريم "سورة الكهف"، وكتب التفسير، وكتب الحديث، وكتب التاريخ، وكتب الجغرافيا والأدب وما نشر في المجلات.

٢- المصادر الأجنبية الإنجليزية، وفيها ذِكرٌ لسدّ الصين والأسرة الحاكمة الصينية التي أُنشِئَ أو استكملَ في عهدها السدّ، وتشمل: **دائرة المعارف الإنجليزية** وكتاب **عجائب الماضي** أو **العالم القديم**.

ومن الواضح أن هناك ثغرة بين نوعي مصادره لا يكون فيها تقاطع في المعلومات حول إثبات وجود الملك الحميري الصعب ذي القرنين، والبناء الأول لسدّ الصين، وهذه الثغرة ليست خافية على الطباخ ولكنه من خلال إيراد كل ما يمكن إيراده من كتب المؤرخين العرب القدماء عن موضوع البحث أراد أن يخاطب المؤرخ العربي ومن ينهج نهجه من العرب بخطاب المؤرخ العربي الذي يملك معلومات خاصة بالمنطقة لم يطلع عليها المؤرخ الغربي ومنهجاً في البحث التاريخي عربياً تأخذ فيه الآثار الشفوية والكتابية والمقدسة دورها إلى أن تؤيدها المعطيات الأركيولوجية التي عادةً ما تأتي متأخّرة. يقول الطباخ في المقدّمة: "هذه تحريرات فائقة تكشف النقاب عن ذي القرنين المذكور في كتاب الله تعالى وبنائه لذلك السدّ العظيم ومكان وجوده، وبيان أمة يأجوج ومأجوج وأحوالهم وما كان منهم في سالف العصور وما سيكون منهم في مستقبل الزمان، أرجو أن تزول كل شبهة علقت في بعض أفكار المؤرخين من العرب والغربيين ويرتفع بها الشك والريب عن كل ذي قلب وعين".

بيد أن الطباح يتناول مادته التاريخية في هذا الكتاب على ثلاث مستويات متداخلة:

الأول: تناول المؤرخ المعاصر والمحقق، ويظهر ذلك في مقابلاته للروايات المتعددة وتحليله لها واستنباطه واعتماده على النصوص الشعرية والقرآنية والحديثية والمأثورات الشفوية السيروية كمصادر لتاريخ في غاية الغموض والقدم.

الثاني: تناول رَجُلِ الحديث، وهو أستاذ مصطلح الحديث في المدرسة الخسروية، في تعامله مع السند والمتن وعرضه للروايات المتقاربة أو المختلطة وإبداء رأيه فيها.

الثالث: تناول القصاصين وأهل السير كحديثه عن ركوب ذي القرنين البحر من الأندلس واكتشافه أمريكا مطلقاً لخياله العنان بالرغم من استناده على بعض البحوث المعاصرة له.

والطباخ في كتابه يستعرض الروايات المختلفة عن ذي القرنين مورداً حجج أصحابها معلقاً عليها بالتحليل والنقد. مؤكداً أن ذكر ذي القرنين كان معروفاً قبل أن يورد القرآن الكريم قصته. وذلك أن اليهود وجهوا بوساطة النضر بن الحارث وعتبة بن أبي معيط ثلاثة أسئلة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. الأول في التاريخ الديني عن أهل الكهف، والثاني فلسفي عن الروح، والثالث في التاريخ عن ذي القرنين، وقد جاء الرد على السؤال الثالث بالآية الكريمة: ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوْ عَلَيْكُمْ مِّنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا** ﴾ وما نلاحظه من مناخات هذا الحوار أن اليهود في الجزيرة العربية كانوا يستأثرون بمعرفة التاريخ العام ويحتكرون هذه المعرفة بينما كان العرب يهتمون بمعرفة أيامهم، وكانت معرفتهم التاريخية مشوبة في كثير من الأحيان بالأساطير كاعتقادهم بأن تدمر هي من بناء الجن كقول النابغة الذبياني:

وَخَـيَّسِ الجـن إنـي قـد أذنـت لهـم يبنـــون تـــدمر بالـــصفَّاح والعمـــد

ولهذا فإن دقة الإجابة على هذه الأسئلة، وهي بعض ما حفظ لنا من تلك الحوارات، كانت إيذاناً لليهود بانتقال المعرفة التامة من أيديهم إلى أيدي العرب المسلمين.

تحقيق المؤرخين في شخصيتين تاريخيتين:

يؤكد الطباخ أن ذا القرنين هو غير الإسكندر بن فيلبوس اليوناني هازم الفرس وملكهم دارا. ويورد في ذلك أقوال المؤرخين كالفخر الرازي، وأبي الفداء والمقريزي وأبي الريحان الهروي، ووهب بن منبه اليماني صاحب الأخبار (ت: ١١٤هـ).

يقول أبو الفداء في تاريخه في الكلام عن الإسكندر ج ١، ص ٤٥: "وقد قيل عنه إنه انصرف من المشرق إلى جهة الشمال وبنى السدّ على يأجوج ومأجوج. والصحيح أن الإسكندر المذكور لم يكن منه ذلك. بل ذو القرنين وهو ملك على زمن إبراهيم الخليل عليه السلام وكذلك استفاض عن ألسنة الناس أن لقب الإسكندر المذكور ذو القرنين وهو أيضاً غلط فإن لفظة ذو لفظة عربية محضة، و ذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن وكان منهم: ذو جدن و ذو الكلاع و ذو نواس و ذو شناتر و ذو القرنين. الصعب بن رائش واسم الرائش الحارث بن ذي سدد بن عاد بن الماطاط بن سبأ وهو الملك الذي مكَّن الله له في الأرض وعظم ملكه وبنى السدّ والعلامة المقريزي في **الخطط** الجزء الأول ص ٢٤٧ يذكر أن اسم ذي القرنين هو الصعب بن ذي مراثد بن الحارث وأنه مَلِك من ملوك حِمْيَر وهم العرب العاربة، وكان تبعاً متوجاً ولما وَلِيَ المُلْكَ تجبّر ثم جنح إلى العدل واجتمع بالخضر وجعله وزيره. ويذكر ابن حرير الطبري في **تاريخه** قصة الخضر ويقول: "وكان الخضر في أيام أخر يردّ الملك بن الضحاك

في قول عامة أهل الكتاب الأول وقبل موسى بن عمران عليه السلام وقيل إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان على أيام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام والهمداني في كتاب **الأنساب** يذكر أن اسمه الهميسع ويكنى أبا الصعب ويذكر وهب في **التيجان** أن إبراهيم الخليل تحاكم إلى ذي القرنين في شيء فحكم له، ويورد حديثاً فحواه أن عبد الله بن عباس سئل عن ذي القرنين فقال هو من حمير وهو الصعب بن ذي مراثد الذي مكّن الله له في الأرض. فالرواة والمؤرخون العرب إذن يتفقون على التفريق بين ذي القرنين الحميري الذي ملك الأرض وبَنَى سدّ الصين واسمه الصعب بن ذي مراثد وبين الإسكندر المقدوني "اليوناني" بن فيليبوس وكان معلّمه أرسطو.

وابن هشام صاحب **السيرة** يجعل الملكين: الحميري واليوناني واحداً وقد أنكر عليه ذلك الحافظ أبو القاسم السهلي، غير أن ابن هشام يذكر في موضع آخر أن اسم ذي القرنين هو الصعب بن ذي مراثد وأنه كان أول التبابعة ويقول وهب بن منبه أن كعب الأحبار سئل عن ذي القرنين فقال الصحيح عندنا من علوم أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مراثد، وأن الإسكندر رجل من بني يونان بن عيص بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وفي كتاب **الإكيل في أنساب ملوك حمير وأيام ملوكها**، للحسن بن أحمد الهمداني أبيات لامرئ القيس بن حجر يقول فيها عن الملك الحميري ذي القرنين:

همـــام طَحطـــحَ الآفـــاق وحيـــاً وقـــاد إلى مـــشارقها الرِّعـــالا
وسـدَّ بحيـث ترقـى الـشمس سُـداً ليـــأجوج ومـــأجوج الجبـــالا

وفي **الإصابة** لابن حجر أن ذا منادح وذا دجن وذا مهدم قدموا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال لهم انتسبوا فقال ذو مهدم:

على عهد ذي القرنين كانـت سـيوفُنا صـــوارمَ يفلقـــن الحديـــد المـــذكرا

وقد ذكر أوس بن حجر الملك الصعب في قوله:

وتجـــري الليـــالي بانتقـــاضٍ وفرقـــة وأن سـبيلَ الـصعب لا شـك يُـسْلَك

كما ذكره طرفة بن العبد في قوله:

إذا الـصعبُ ذو القـرنين أزجـى لـواءه إلى ملـك ساسـان فقامـت نوادبـه
يسير بوجـه الحتـف والعـيشُ جمعُـه وتمـضى علـى وجـه الـبلاد كتائبـه

قد يستغرب المرء أن يقوم ملك عربي من حمير بهذه الفتوحات ويسيطر على بلاد فارس وما وراءها. غير أن الآثار التاريخية والأسطورية الفارسية تشير إلى مثل هذا، فالمنطومة الفارسية **الشاهنامه** للفردوسي تشير إلى ملك عربي لقبه الضحاك واسمه بيوراسب بن مرداس خلف جمشيد صاحب عيد النيروز في الحكم، تقول: "انشق ملوك الفرس عن طاعة ملكهم الأكبر جمشيد واستبدوا في الرأي والملك واجتمعوا إلى الضحاك بن ملك العرب ليخلصهم من جمشيد فنصب نفسه ملكاً عليهم وقصد جمشيد الذي هرب إلى أرض الهند فلحقه وقتله بالمنشار بعد حكم دام سبعمائة سنة ثم طغا الضحاك وتجبّر وظلم فثار عليه أفريدون واستلم الحكم وقام بفتوحات واسعة، ويروي الفردوسي أن العرافين تنبؤوا للضحاك بولادة طفل اسمه أفريدون يأخذ منه الملك فأمر بطلبه ليقتله، وكان أفريدون ملكاً عادلاً وحكمه خيراً، وذكرنا ذلك لأن بعضهم يرى أن ذا القرنين الذي كان على عهد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام هو أفريدون.

كما يروي ياقوت الحموي في حديثه عن سمرقند أن الملك اليمني شمَّر بن أفريقش سار في خمسمائة ألف رجل وخرب سمرقند وأوغل في بلاد الصين فمات عطشاً إلى أن ملك حفيده تبع الأقرن بن أبي مالك فخرج لثأر جدّه وأعاد بناء سمر قند وبنى التيبت، وفي ذلك يقول دعبل الخزاعي:

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سموا قديماً سمر قنداً وهم غرسوا هناك التبتينا

مسيرة الفاتح الحميري:

يتحدث المؤرخ العلامة محمد راغب الطباخ في كتابه **ذو القرنين** في الفصل الثاني عن مسيرة ذي القرنين إلى المغرب الأقصى فاتحاً بلاد الحبشة والسودان وشمال أفريقيا وجزيرة الأندلس، وإنه اجتاز المحيط الأطلسي إلى جزائر البحر ويرجح أنها أمريكا، ويذكر الطباخ مقالة للأب انستانس الكرملي في **مجلة المقتطف** تحت عنوان "عرف العرب أمريكا قبل أن يعرفها أبناء الغرب" وفي هذا المقال يؤكد الكرملي اعتماداً على ما نقله أبو التاريخ هيرودوتس بأن العرب القحطانيين كانوا يترددون على جزر القصدير "بريطانيا" وأنهم كانوا بارعين في الهندسة والملاحة كما يذكر الكرملي بأن المؤرخين المعاصرين يؤكدون أن العرب عرفوا تيار الخليج وركبوه "الأتلانتي" وكان ابن خلدون يسميه المحيط اللبلابي وينشأ من خليج المكسيك ويسير إلى سواحل إيرلندا.

في الفصل الثالث من الكتاب يتحدث المؤرخ الطباخ عن زحف الملك الحميري الصعب بن الحارث "ذي القرنين" إلى الشرق الأقصى مجتازاً بلاد فارس والخزر وتركستان الشمالية والشرقية

فغربي الصين وأوغل في شمالي الصين حتى بلغ جزائرها ثم رجع ليبني سد الصين ويمنع هجوم قبائل يأجوج ومأجوج على جنوبي الصين، وما زال الصينيون يجدّدون في بناء هذا السدّ ويدعمونه ويوسعونه بعد العمارة الحميرية الأولى.

وفي الكتاب الذي كتبه أبو دلف مسعر بن مهلهل عن سياحته في بلاد الصين يذكر أنه التقى عند سور الصين في مكان يدعى القليب بقوم عرب ممن تخلفوا عن تبع "ذو القرنين" لما غزا بلاد الصين يتكلّمون العربية القديمة "الحميرية" ويكتبون بالقلم الحميري، يعبدون الأصنام وملكهم يُهادي ملك الصين.

ونضيف إلى هذا الخبر ما ذكره ول ديورانت في **قصة الحضارة** من أن أبواب السدّ الضخمة مبنيّة على الطراز الآشوري.

ويذكر في حديثه عن السدّ وتاريخ الصين أن "ش هو نغ دي" كان ابناً غير شرعي لملكة تشين إحدى الولايات الغربية من الوزير النبيل "لو"، وقد جلس على كرسي الإمارة في الثانية عشرة من عمره، وفي الخامسة والعشرين بدأ يوحد البلاد بقوة السيف وما بين عامي ٢٢١– ٢٣٠ ق. م استطاع ضم دويلات: هان، جو، ديه، تشِ، دين، تش ويلقبه بـ "بسمارك الصين"، ثم وضع دستوراً للبلاد وتوجه إلى التنظيم الإ داري ودعم الحكم المركزي والقضاء على قوة أمراء الأقطاع. وكان كما يصفه المؤرخون الصينيون" رجلاً كبير الأنف، واسع العينين، ذا صدر كصدر الطائر الجارح، وصوت أشبه بصوت ابن آوى، لا يفعل الخير، له قلب كقلب النمر أو الذئب" وأول عمل قام به بعد التوحيد أن حمى بلاده من الهمج البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية، فأتم الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها، ووصلها كلها بعضها ببعض فتم بناء السور بطول ١٥٠٠ ميل تتخلله أبوابٌ ضخمة على النمط الآشوري، واحتاج تشييده إلى عشر سنوات وعدد لا يحصى من الخلق، يقول عنه الصينيون: "إنه أهلك جيلاً من الناس وأنقذ كثيراً من الأجيال".

على أنه لم يصدّ الهمج عن الصين كما تبيّن فيما بعد وإنما عطّل هجومهم عليها وقلّل حدته، وحال بين قبائل الهون وبين إغارتهم على الصين زمناً ما فاتجهوا غرباً نحو أوربا واجتاحوا إيطاليا حتى سقطت روما في أيديهم.

والطباخ يضع في اعتباراته هذه الحقائق التاريخية. واستكمالاً لموجزات الأقوال والآراء في السد يورد ماجاء في **دائرة المعارف** الإنجليزية تحت عنوان سدّ الصين الكبير، وما جاء في كتاب **عجائب الماضي** بالإنجليزية عن السد لـ "دن هد لند دفيس" و "لا ثورت" أستاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيل.

وبعد مقارنة آراء المؤرخين الغربيين بآراء المؤرخين العرب يستخلص ما يلي:

١- لا علاقة للإسكندر المقدوني بالسدّ فقد بني قبله بالتأكيد ثم تشعث.

٢- ان ش هوانغ دي الذي ارتقى عرش الصين عام ٢٤٦ ق. م أتم بناء السد وعمل على تعزيزه وتقويته، وهذا يعني أنه كان موجوداً من قبل.

٣- وبما أن المصادر التاريخية والأدبية وحدها التي تشير إلى البناء الأول للسدّ، فإن الطباخ يعتمدها ويقول: "الباني الأول هو لا ريب ذو القرنين الملك المؤمن العربي الذي ذكره القرآن العظيم، والبناء الثاني هو تتميم وترميم، والتعليل بقوله لصدّ برابرة الشمال" يوافق ما جاء في القرآن الكريم عن قوم يأجوج ومأجوج.

في القرآن الكريم سورة الكهف تفصيلات هامة عن بناء السد، يقول تعالى: ﴿**ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُوْنِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلاً قَالُوْا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوْجَ وَمَأْجُوْجَ مُفْسِدُوْنَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّيْ فِيْهِ رَبِّيْ خَيْرٌ فَأَعِيْنُوْنِيْ بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آتُوْنِيْ زُبَرَ الْحَدِيْدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوْا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُوْنِيْ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوْا أَنْ يَظْهَرُوْهُ وَمَا اسْتَطَاعُوْا لَهُ نَقْبًا**﴾.

إن جملة الآيات التي تحدثت عن ذي القرنين تدل على مدى التقدّم الحضاري الذي بلغه العرب اليمنيون بالنسبة لباقي شعوب العالم، ففي المشرق الأقصى ـ جنوباً ـ يلتقي ذو القرنين بشعوب لا تعرف بناء البيوت ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا**﴾ وفي الصين وجد قوماً ﴿**لاَ يَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلاً**﴾.

الأمر الثاني الذي تفيده هذه الآيات هو أن السدّ بُني بأيدٍ صينية، وبطلب من ملك الصين، وبعقلية معمارية عربية ﴿**فَأَعِيْنُوْنِيْ بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا...**﴾ إلخ الآية، وهو ما تؤكده آثارياً الطرز المعمارية الآشورية القائمة الآن لأبواب السدّ. وبتعبير آخر الطرز المعمارية لمنطقة الشرق الأوسط.

أما روايات المؤرخين العرب عن صفة السد وبنائه فلا تتجاوز التفسيرات اللغوية وبعض الشروح البسيطة لهذه الآيات، أما ما ذكر من تفصيلات كالذي أورده الثعلبي في **تاريخ الأنبياء** المسمى **عرائس المجالس** فيعتمد على ما ذكره أهلُ السير. وكان نزول آية ذي القرنين مدعاةً إلى

التحقيق في أمر وجود السدّ والاطمئنان على سلامته خوفاً من غزوٍ يقدم من الشرق. يروي ابن جرير الطبري أن رجلاً قال: "يا رسول الله قد رأيت سدّ يأجوج ومأجوج، قال: انعته لي قال: كالبُرْدِ المُحَبَّر طريقة سوداء وطريقة حمراء، قال: قد رأيته".

ويروي صاحب **معجم البلدان** أنه كان من قواد عمر بن الخطاب عبد الرحمن بن ربيعة فتح مدينة باب الأبواب على بحر الخزر، وكان عنده شهريزار فأقبل عليهما رجل عليه شحوبة فقال شهريزار إنه قد أنفذ هذا الرجل منذ سنين نحو السد لينظر ما حاله وبعث معه رسائل إلى الملوك لتسهيل مهمته حتى وصل الصين فاطمأن على حال السدّ وعاد، وراح يصفه للأمير.

ويذكر ياقوت الحموي أيضاً أن الخليفة العباسي الواثق بالله رأى في المنام أن السدّ قد فتح وتدفقت منه قبائل يأجوج ومأجوج فشكَّل بعثة قامت باستطلاع السدّ، وخبر البعثة محقق، وإن اختلفت الروايات في صفة السدّ.

إن الخوف من الخطر القادم من أقصى الشرق لم يكن يُفزِعِ الصينيين الذين أقاموا السدّ فحسب وإنما كان مثار رعب للدولة الإسلامية أيضاً، وقد تحقق هذا فيما بعد حين تدفقت جحافل المغول بقيادة جنكيز خان ثم هولاكو، والتتار بقيادة تيمور لنك، ويرى أغلب المؤرخين والمفسرين العرب القدماء أن هذا الغزو هو ما عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا، وحلق بإصبعه الابهام والتي تليها".

وكانت القبائل المغولية تعيث فساداً في أرض الصين حتى أقيم السدّ، ثم استطاعت هذه القبائل في أواخر القرن السادس الهجري بقيادة جنكيز خان تخريب أجزاء منه وتدفقت نحو جنوبي الصين واتخذت بلدة كراكوردم الصينية عاصمة لها، ثم تدفقت نحو تركستان الشرقية، فالبلاد الإسلامية إلى أن سقطت بغداد والشام حتى كانت هزيمتهم المنكرة في عين جالوت.

خلاصة:

إن المؤرخين العرب لم يكن لديهم شك في وجود ذي القرنين وبنائه سور الصين وأنه عربي من حمير، وكان تُبعاً متوجاً، وان اسمه الصعب بن ذي مراثد، وقد كثر ذكره في أشعار العرب، وكانوا يعتبرونه قبل الإسلام حقيقة تاريخية، ولما سئل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم نزلت الآيات في تأكيد وجوده وإنجازه العمراني الكبير. والعلامة المقريزي في **الخطط** ج ١ ص ٢٤٧ يذكر سلسلة نسبه، وأن جيوشه اجتازت أفريقيا حتى وصلت إلى الأطلس، ثم ارتدت شرقاً حتى بلغت بلاد

الصين، وفي رحلة العودة مرض ذو القرنين الملك الصعب في أرض العراق وتوفي ودفن في موضع يسمى "حِنو قراقر" وفي ذلك يقول النعمان بن الأسود في رثائه:

بحنـــو قراقـــر أمـــس رهينـــا أخـــو الأيـــام والـــدهر الهجـــان
لـــئن أمـــست وجـــوه الـــدهر ســـوءاً جُلـــين بـــذلك الملـــك اليمـــاني
لقـــد صـــحب الـــردى ألفـــين عامـــاً ولاقـــاه الحمـــام علـــى ثمـــان

في تاريخنا العربي وبخاصة المُوغِل في القِدَم صفحاتٌ لم تُقَرأ يمكن أن تكون مجال تحقيق وبحث واكتشاف شريطة أن نتقوى بأمور ثلاثة: منهج البحث العلمي المنبثق من نظرية في المعرفة خاصة بنا، والزاد المعرفي الذي تقدّمه مصادرنا بالإضافة إلى المصادر الأخرى، وإرادة اكتشاف المجهول والبحث عما هو جديد في الحقائق، ولا بد بعد هذا أن يضيف المؤرخ العربي شيئاً جديداً في علم التاريخ المحقّق.

* * * *